# مقدمة[1]

«.. ليس ثمة رموز للثقافة القومية الحديثة تفوق أضرحة الجنود المجهولين في لفتها الأنظار واسترعائها الانتباه [...] وهو يعود على وجه الدقة إلى كونها فارغة عن قصد [...] فعلى الرغم من خلو هذه القبور من أية بقايا فانية أو أرواح خالدة يمكن تحديدها، إلا أنها مترعة بالتخيلات القومية ..».

**بندكت أندرسون**

---

(١) لقد أكثرنا من سوق الشواهد والاقتباسات في هذا العمل. ونحب ان نشير إلى طريقتنا في الاقتباس. فالاقتباس ما جاء بين «....» أما ما يكون داخل الاقتباس مكتوبا بين [ ] فهو زيادة من صاحب هذه الدراسة لملاءمة المعنى بين أجزاء الاقتباس حتى لا يخل الانتقال في النص الأصلي من جملة إلى أخرى جاءت بعدها غير متصلة بها، فإن لم يظهر من خلل اكتفينا بوضع النقاط على النحو الآتي: [...]. أما ما نضعه بين مزدوجتين " " فهو إما للمصطلحات والأعلام أو للتنبيه على معنى خاص. والله الموفق.

● **عن "الأمة" و"القومية" والنظر فيهما:**

. . كثيرةٌ هي تعريفات القومية (Nationalisme) بل ومُشْكِلَةٌ أيضًا؛ لأنها قد تتداخل عند بعض متناوليها مع مفاهيم أخرى كالعرقية والجنسية. وقد يتفق الجميع على الطبيعة السياسية للخطاب القومي، وأنه ترجمة للشعور بالانتماء لأمة أو قوم أو ما يسمى بـ"العاطفة الوطنية"؛ لكنهم يختلفون في مفردات هذا الخطاب؛ «. . فببساطة لا يوجد اتفاق حول ما هي النزعة القومية . .»[(١)].

لقد عُرِّفَت القومية عند البعض بأنها ذلك المبدأ السياسي الذي يستمد منه الأفراد هوية انتمائهم لأمة معينة كما تستمد منه هذه الأمة الشرعية لإقامة دولتها. وهو نفس المعنى تقريبًا الذي عبر عنه آخرون إذ عرّفوها بأنها مجموع المبادئ والقناعات ذات المنحى الإيديولوجي أو السياسي التي يصبح الفرد بموجبها ذا هوية ثقافية وسياسية معينة في إطار أمة من الأمم.

ومن وجهة نظر العلوم السياسية و الاجتماعية هناك مقاربتان وتصنيفان:

فأما المقاربتان: فالأولى "أصلية إثنية" (Primordialist)[(٢)]؛

---

(١) ديفيد ماك كرون، "علم اجتماع القومية" - ص: ٢٠/ ترجمة سامي خشبة/ منشورات المركز القومي للترجمة - ٢٠٠٧.

(٢) وجدنا من يترجم كلمة "Primordialism" بالبدائية ولكننا ربما رأيناه لا يفي =

وهي التي تنظر إلى القومية على أنها تعبيرٌ عن عراقة الوجود في الزمان، وتصورٌ للتطور الإنساني انتظامًا في مجتمعات متباينة على أساس من تشابه الميلاد في المكان. أما المقاربة الثانية فهي مقاربة حداثية؛ وهي تنظر إلى القومية باعتبارها ظاهرة تقوم على ما يقوم عليه مجتمع ما ليكون مجتمعا حديثًا[1].

وأما التصنيفان: فالأول تصنيف كلاسيكي؛ وفيه نفرق بين القومية بمعناها السياسي، والقومية بمعناها الأنثربولوجي؛ فهو تصنيف متمحور حول محددات الانتماء في تصوره لمفهوم القومية. ففي المعنى السياسي، يكون الانتماء للقومية متداخلا مع مفهوم الدولة، ويكون له تجلٍّ مدنيٌّ إلى جانب تجلّيه السياسي الصِّرف في إحالته على مفهوم المجتمع المدني. بينما في المعنى الأنثربولوجي، يكون الانتماء للقومية متداخلًا مع مفهوم الأمة، فيحيل على ما هو ثقافي سواء في بعده الديني أو اللغوي أو التاريخي، كما أنه قد يحيل على ما هو عرقي، وقد يمزجهما معًا. أما التصنيف الثاني؛ فيدور تصوره لمفهوم القومية مع مقاصد

---

= بكفاء المعنى ففضلنا الاكتفاء بترجمة شبه حرفية (أو قل تحصيلية بتعبير د.طه عبد الرحمن) لهذا المفهوم (انظر: أوموت أوزكيريملي، "نظريات القومية - مقدمة نقدية" - ترجمة معين الإمام - ص:١٠١/ المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات).

(١) انظر: Alexander J. Motyl, "Encyclopedia of Nationalism" - Vol 1/ San Diego (CA): Academic Press, 2001.
(اقتباس مترجم من طرف الكاتب).

الخطاب المُسَمّى قوميًا، ويحدها في أربعة مقاصد: مقصد السيطرة (domination) ومقصد التحرر (rationاlib) ومقصد المحافظة (conservation) ومقصد المطالبة أو الادعاء (Revendication)؛ فيكون محصولنا على "قوميةِ سيطرة" و"قوميةٍ تحررية" و"قوميةٍ سلفية (مُحافِظة)" و"قوميةٍ مَطْلَبِيَّة"[1]. وكلا التصنيفين له وجاهته وقيمته في مقاربة الظاهرة القومية خصوصًا القومية العربية باعتبار المجال الزمني الصغير الذي تَضمَّن صعودها و"أفولَها"، وباعتبار الاجتهادات التي انتظمت المفكرين القوميين العرب في إطارها، ثم باعتبار الصور والأنماط التي اتخذتها التجارب القومية العربية في تعدُّدِها وتبايُنها في تنزيل مقولاتها المركزية.

إن هذه التعريفات التي في مجملها تدور حول مسائل تتعلق بالهوية الوطنية و"لواحقها" الاجتماعية، وأخرى تتعلق بالسلوك الفردي والجماعي في إطار التفاعل مع قرارات الدولة وتصرفاتها، إنما تتعلق بمعاني الانتماء إلى "الأمة" -محلِّ النظر القومي- وبكلِّ ما من شأنه أن يترجم هذا الانتماء؛ فمفهوم "الأمة" إذن مفهوم مركزي في إشكالية حَدِّ "القومية". إنَّه «.. لكي نفهم النزعة القومية، علينا أن نفهم استخدامات مقولة "الأمة" [...] لإمداد

(١) Balthazar, Louis - "Bilan du Nationalisme au Québec" p:10-25 - Pub électronique de l"Université du Québec à Chicoutimi/ (http://classiques.uqac.ca/contemporains/balthazar_louis) (بتصرف).

الفكر والتجربة العملية بما يحتاجان ولتنظيم الخطاب والفعل السياسيين . .»[١].

وقد تُعَرَّفُ "الأمَّةُ" بأنَّها «. . جماعة واعية بكينونتها على وجه الفرادة في إطار المشترك الثقافي والتاريخي، على الأرض والأصل اللذين يجمعانها. [ومنه فإنَّ] الفكرة القومية هي حركة تعبوية للأمة في سعيها لتحقيق أهداف سياسية معينة والتي عادة ما تتضمن قضية وجود هذه الأمة وبقائها وسيادتها . .»[٢].

ومن أجمع التعريفات وأكثرها تشبعًا بالنفس الأنثربولوجي الصميم، تعريف "بِنِدِكْت أندرسون"[٣] للأمة بأنَّها «. . جماعةٌ سياسية مُتَخَيَّلَة . .»[٤]. والقولُ بأنها مُتَخَيَّلَة لا يعني وصفها بأنها خيالية؛ فإنَّ القول بأنها مُتَخَيَّلَة يقومُ على حقيقة أنَّ «. . أعضاءها حتى في أقل الأمم تعدادًا لن يعرفوا غالبية إخوانهم أبدًا ولن يقابلوهم بل ولن يسمعوا عنهم، ومع ذلك ففي عقل كل منهم تعيش

---

(١) ديفيد ماك كرون، "علم اجتماع القومية" - ص: ٢١/ ترجمة سامي خشبة/ منشورات المركز القومي للترجمة - ٢٠٠٧,

(٢) Peter Rutland - "Nationalism"/ Encyclopedia of Political Science (CQ Press, 2010).

(٣) "Benedict Anderson" عالم إيرلاندي ولد سنة ١٩٣٦م، يشتغل في مجال العلوم السياسية والتارخية، ويعمل بجامعة كورنيل بالولايات المتحدة الأمريكية، ومن أشهر أعماله كتاب "الجماعات المُتَخَيّلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها".

(٤) بندكت أندرسون، "الجماعات المُتَخَيَّلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها" - ص: ٥١/ ترجمة: ثائر ديب - تقديم: عزمي بشارة/ قدمس للنشر والتوزيع.

صورة جماعتهم المجتمعة . .»[1]. كما أن القولَ بأنها مُتَخَيَّلَة يعني تَخَيُّلَها «. . بوصفها "كيانًا" محدودًا، لأنه حتى لأكبر الأمم عددًا -التي ربما تضم بليونًا من البشر الأحياء- حدود محدودة، وإن كانت مرنة تقوم فيما وراءها أمم أخرى . .»[2]؛ كما أنه يعني تَخَيُّلَها «. . بوصفها ذات "سيادة" لأنها ولدت في عصر كان التنوير والثورة يحطمان فيه مشروعية الحكم الوراثي المتسلسل المستند إلى زعم الحق الإلهي . .»[3]؛ كما أنه يعني تَخَيُّلَها «. .بوصفها "جماعة" لأنها تتصور دائمًا بوصفها علاقة ارتباط [ ] أفقية وعميقة وذلك بصرف النظر عن الاستغلال وعدم المساواة الفعليين اللذين يسودان كل أمة . .»[4].

إن "الأمة" -ومعها "القومية"- «. . مقولة من مقولات الممارسة والتطبيق، وليست -للوهلة الأولى- من مقولات التحليل . .»[5]، ومنه فإنَّ النظر في الظواهر القومية هو بالضرورة

---

(١) ديفيد ماك كرون، "علم اجتماع القومية" - ص:٢٥/ ترجمة سامي خشبة/ منشورات المركز القومي للترجمة - ٢٠٠٧.

(٢) ديفيد ماك كرون، "علم اجتماع القومية" - ص:٢٥/ ترجمة سامي خشبة/ منشورات المركز القومي للترجمة - ٢٠٠٧.

(٣) ديفيد ماك كرون، "علم اجتماع القومية" - ص:٢٦/ ترجمة سامي خشبة/ منشورات المركز القومي للترجمة - ٢٠٠٧.

(٤) ديفيد ماك كرون، "علم اجتماع القومية" - ص:٢٦/ ترجمة سامي خشبة/ منشورات المركز القومي للترجمة - ٢٠٠٧.

(٥) ديفيد ماك كرون، "علم اجتماع القومية" - ص:٢١/ ترجمة سامي خشبة/ منشورات المركز القومي للترجمة - ٢٠٠٧.

نظر في مساراتها ومآلاتها بموازاة النظر في عباراتها. إنها « . . منتجات ثقافية من نوع خاص، ولكي نفهمها على نحو صحيح فإننا بحاجة إلى أن نبحث بعناية كيف ظهرت إلى الوجود تاريخيا وبأي سبل تغيرت معانيها عبر الزمان، ولماذا [حظيت][1] بمثل هذه الشرعية الوجدانية العميقة . . »[2]. ولذلك، فسؤالنا "ما الأمة؟" ومن ورائه "ما القومية؟" قد لا يتأتى الجواب عنه إلا عبر سؤال أوكد في الباب وهو سؤال « . . كيف يتأسس الانتماء لأمة بوصفه شكلا سياسيا وثقافيا؟ . . »[3]. أي عبر نظرنا في كيف نتجت الظاهرة القومية في أمة من الأمم خطابًا وممارسة؟.

ومنه كان النظر في القومية العربية غير مُنْفَكٍّ عن النظر في مساراتها في بعدها الاجتماعي والسياسي، والنظر في مقولاتها التأسيسية التي عليها تنعقد خطابيتها، وكذا لصنوف القراءات التي كانت -هي- محلًا لها سواء من أهلها أو من غير أهلها. إنها أشبه بالطريق التي يصنعها الخطو؛ إذا أمعنت طالت، وإن ملت مالت، وإن أحجمت وقفت بك حيث انتهيت. تنتهي بتوقُّفِكَ طريقُك وتمتد

---

(١) قد استُخْدِمَ الفعلُ "حظي" في النص المُتَرْجَم مضارعا ورأينا استخدامه في الماضي لأنه أفيَد لنا في وقوفنا على الحياد ما وسعنا الأمر. ذلك أن الماضي لا يفيد الاستمرار بالضرورة كما لا يفيد الانقطاع.

(٢) ديفيد ماك كرون، "علم اجتماع القومية" - ص: ٢٥/ ترجمة سامي خشبة/ منشورات المركز القومي للترجمة - ٢٠٠٧.

(٣) ديفيد ماك كرون، "علم اجتماع القومية" - ص: ٢١/ ترجمة سامي خشبة/ منشورات المركز القومي للترجمة - ٢٠٠٧.

من خلفها الأرض كأنها تسأل الطارقين من غيرك اجتيازها.

- **عن النظر في القومية العربية:**

ثم إن الحديث عن الخطاب القومي العربي -فوق ذلك- محفوفٌ بمحاذير منهجية أخرى، لأنه قد يبدو حديثًا عن جُلِّ كَسْبِ العرب الثقافي والسياسي والاجتماعي وهم يسعون إلى استعادة مكانتهم المفقودة وصدارتهم الموؤودة بين الأمم منذ صدمتهم الحضارية مع حملة نابليون على مصر أواخر القرن الثامن عشر الميلادي مرورا بالقرن التاسع عشر وعلى طول القرن العشرين. ذلك، أننا نجد فكرة القومية العربية -من حيث هي في عمقها نزعةٌ تسعى إلى أن تُبَوِّئَ العرب مكانتَهم بين الأمم الإسلامية بشكل خاص والإنسانية بشكل عام- حاضرةً بهذا المعنى، بل ومُؤطِّرَةً لكثير من الاجتهادات الفكرية والتجارب السياسية التي انتظمت الفعل العربي على اختلاف مشاربها وتباين توجهاتها، فنجدها في تلافيف الخطاب الاشتراكي العربي والخطاب الليبرالي العربي والخطاب الإسلامي العربي وفيما يشتق من هذه الأصول من صنوف الخطاب.

ففي الخطاب الليبرالي العربي، لا تكاد تجد واحدًا من المؤسسين له إلا متفاعلًا مع المقولات الكبرى للخطاب القومي العربي في سياق ما اصطلحنا عليه بالمطلب الريادي للقومية العربية، بل إن أحد أقطاب الفكر القومي العربي وهو د. قسطنطين

زريق يوصف عند البعض بصاحب النزعة الليبرالية «الفاقعة»[1]. أما عما أسميناه المطلب الريادي، فلقد أرجعنا المقولات التأسيسية للخطاب القومي العربي إلى مقولتين مركزيتين اثنتين: المقولة السيادية والمقولة الريادية.

أما الأولى فتدور حول مسائل التحرر والاستقلال والوحدة، وهي التي ستحظى بالاهتمام الأكبر من النظر القومي، وعنها ستتفرع المقولات المركزية الأخرى المؤثثة للخطاب القومي العربي.

أما الثانية فتدور أساسًا حول أسئلة التقدم الحضاري والتنمية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهذه ستشط عن الخطاب القومي "الرسمي" الذي رانت عليه النزعة الراديكالية بوجه عام؛ ولذلك سوف يُعْرَف بها الليبراليون العرب أكثر من غيرهم لأنها تقع في بؤرة اهتمامهم بسبب من طبيعة الخطاب الذي يتبنونه، وإلا فإن "الجواب الليبرالي" عن السؤال الريادي إنما هو كسب قومي باعتبار المنشأ وباعتبار المآل.

أما الفكرة الاشتراكية فيعتبر بعض الدارسين للخطاب القومي العربي ظهورها غير مرتبط بالفكر القومي من جهة كونها لم تظهر في خطاب «.. الرعيل الأول من القوميين العرب في مرحلة الجمعيات [...] وكان علينا انتظار الثلاثينات لتظهر بذور الفكرة

(١) د.عبد الإله بلقزيز، نقد الخطاب القومي - ص: ٢١٨/ مركز دراسات الوحدة العربية.

الاجتماعية عند "عصبة العمل القومي" الراديكالية. غير أنها أكدت أن ليس من الجائز اعتناق أي مذهب من المذاهب الاجتماعية يكون من شأنه إضعاف الحس القومي [...] وتجنب ساطع الحصري وعبد الله العلايلي وقسطنطين زريق الخوض في المسألة الاشتراكية..»[1]. أما ما ظهر من إرهاصات أولى للفكرة الاشتراكية (بلبوس أخلاقي إسلامي) في فكر السيد جمال الدين الأفغاني والإصلاحيين الإسلاميين (أو الذين اصطلحنا عليهم في هذه الدراسة أصحاب مدرسة التجديد) فلم يعتبروه مظهرًا مبكرًا للفكر الاشتراكي في الخطاب القومي. وهم لم يجاوزوا الصواب فيما ذهبوا إليه من حيث إن الفكرة الاشتراكية عند هؤلاء لم ترق إلى مصاف الإيديولوجيا أو البرنامج السياسي؛ غير أنّهم يحجرون واسعًا إذا كان دافعهم إلى هذا القول تفرقتَهم بين خطاب مدرسة التجديد الإسلامي والخطاب القومي العربي. وقد ذهبنا مع من اعتبر هذا التيار من أهم روافد الفكر القومي العربي إن لم يكن أهمها منذ بدايات التأسيس إلى أن وقع الانفصال بين أجزائه تحت طائلة الاختيارات السياسية في سياق التموقف من الخلافة العثمانية، وبعض الاجتهادات الفكرية التي بدأت في الظهور خصوصًا بعد الحرب العالمية الأولى، كفكرة العلمانية على سبيل

(١) انظر: شمس الكيلاني، "البعد الاشتراكي في الفكر القومي العربي"/كتاب "الثقافة العربية في القرن العشرين حصيلة أولية ص:٢٨٧/ إشراف د.عبد الإله بلقزيز/ ط:مركز دراسات الوحدة العربية.

المثال. فإذا صحّ القول بعدم التفرقة، لم تكن الفكرة الاشتراكية منفكة في ظهورها عن الفكر القومي العربي، بل تكون مواكبة له -بحضورها عند مدرسة هامة فيه- متطورة معه، ومأوَّلةً بحسب ما تهيأ له متلقوها من القوميين العرب في إطار اجتهاداتهم الفكرية والسياسية. وسوف يخلف بعد الجيل المؤسس للفكرة القومية العربية -جيل أصحاب "الجمعيات" كالبستاني واليازجي، والرعيل الأول من مدرسة التجديد كالأفغاني وعبده- ثم الجيل المطوِّر للخطاب القومي كالحصري وزريق جيلٌ سوف يعمل على "أدلجة" الفكرة القومية، لذلك سوف يأرز إلى «.. دمج الاشتراكية في نظريته القومية ..»[1]، جاهدًا وسعه في "تَبْيِئَتِها" إلى حد القول بأنَّ «.. اشتراكيتنا قومية [...] ونحن لا نختلف على مبدأ الاشتراكية وإنما على أسلوبها [...] نريد من الاشتراكية أن تخدم قضيتنا القومية ..»[2]. بل وصار الحضور الاشتراكي في الخطاب القومي أوضح مع التجربة الناصرية التي ورد في أدبياته في معرض الحديث عما سوف نصطلح عليه بالمطلب الريادي للقومية العربية القول بأنَّ «.. الاشتراكية العلمية هي الصيغة الملائمة لإيجاد المنهج الصحيح للتقدم ..»[3]. وصارت مع هذه التجربة المقولة

(١) الثقافة العربية في القرن العشرين.

(٢) ميشيل عفلق، "في سبيل البعث: الكتابات السياسية الكاملة"، ج١ - ص: ٢٨٨.

(٣) من كلمة الرئيس جمال عبد الناصر في تقديم الميثاق الوطني من جامعة القاهرة في ٢١ ماي ١٩٦٢م.

الاشتراكية ثالثة ثلاث من المقولات التأسيسية لخطابها القومي وهي الحرية والاشتراكية والوحدة[1].

وكما أن للنزعة القومية حضورًا في الخطابات الاشتراكية والليبرالية العربية فإنَّ لها عِدْلَ ذلك في ثنايا الخطاب الإسلامي العربي خاصِّه وعامِّه. ونقصد بخاصِّة: الخطابَ الذي يُنْسَب إلى الحركات الإسلامية -والتي يطلق عليها البعض تيار الإسلام السياسي- وهو خطابٌ معروف عند بعض روّاده بمقاطبته الشديدة للقومية العربية مشروعا وفكرا، على اعتبار أن الإسلام عند هؤلاء هو المحدِّد للانتماء لا العروبة، وكذا باعتبار التوترات التي طبعت علاقتهم بالتجارب القومية في غير ما بلد عربي. ولكننا برغم ذلك نجد عند أصحاب هذا الخطاب رَوْسمًا من نزعة قومية متَضَمنة عميقا في ذهنتيهم، ومتأصِّلة في قابليتهم. فالعروبة من حيث هي لسانٌ، أساسٌ للهوية الإسلامية التي عنها يصدرون وإليها يفيئون؛ «.. ذلك أن القرآن الكريم قد اختارت الأقدار له لغة معينة ينزل بها وتكون وعاء لهدايته، وهي العربية ..»[2]. ومن حيث هي ثقافة، رافدٌ أوفى للفكر الإسلامي. ومن حيث هي قضيةُ سيادةٍ، فموالاة العرب وحبُّهم وتوقيرُ مكانَتهم وما إلى ذلك مواضيعُ ورد

(١) انظر: شمس الكيلاني، "البعد الاشتراكي في الفكر القومي العربي"/كتاب "الثقافة العربية في القرن العشرين حصيلة أولية ص:٢٨٨/ إشراف د. عبد الإله بلقزيز/ ط:مركز دراسات الوحدة العربية.

(٢) محمد الغزالي، "حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي" - ص:١٢.

فيها الكثير من الأحاديث والآثار؛ كما أنه «.. بظهور الإسلام وباختيار العرب حَمَلة له واختيار لغتهم لسانًا للوحي الأعلى وانتهاء صلة السماء بالأرض في هذه الرسالة الخاتمة، بهذا كله أصبح للعروبة شأن آخر، شأن ضمن لها الكرامة والخلود ..»[1]. ونقصد بعامِّه (أي الخطاب الإسلامي العربي): الخطابَ الذي ينتظم طائفةً من الكتاب والمفكرين والمصلحين من ذوي النزعة الإسلامية ولكن ممن لا يصنفون في إطار فكر الحركة الإسلامية أو "تيار الإسلام السياسي". فعند هؤلاء أيضًا نجد هذه النزعة القومية حاضرةً، بل ربما بشكل أكثر جلاء منها عند غيرهم؛ كما أننا نجد أفكارهم وكتاباتهم حاضرةً في السياق "الرسمي" للإنتاج الفكري القومي العربي.

القولُ في الخطاب القومي العربي إذن قولٌ في عموم الإنتاج الفكري العربي الحديث المتفاعل مع النزعة القومية العربية بجانب القول في خصوص الإنتاج الذي يصدُر مؤطرا بالفكرة القومية العربية ويجعلها مدار اشتغاله؛ وهو مقصودنا من هذه الدراسة[2].

---

(١) محمد الغزالي، "حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي" - ص: ١٢.

(٢) إن كلمة "خطاب" تقتضي بالأساس نظرا خاصًا ربما احتاج منا ما لا تتيحه لنا هذه الدراسة التي فرض سقفها الزمني سبيلا في البحث لا يتيح توسعا إلا بمقدار. ولذلك تحفظنا على كلمة "خطاب" وضمناها فيما نتناوله من قضايا الفكر القومي العربي تأريخا وعرضا ونقدا تحت مسمى أعم يجعلنا أوفى بالدعوى غير مخلفين في الفحوى؛ وهو ما يشي به العنوان الذي اقترحناه: "**القومية العربية: تأملات في الفكرة والمسار**".

● **عن هذه الدراسة:**

لقد حاولنا من خلال هذا البحث أن نقارب الظاهرة القومية العربية خطابًا/فكرة ومسارا. فعرضنا لما رأيناه إرهاصات لها وبسطنا القول فيما اعتبرناه محطات فارقة في تاريخها. فأما ما رأيناه من مقدمات تاريخية مُرْهِصةً للقومية العربية، فقد "أنِفْنا" فيه من التَّسليم للقول من أن الحملة الفرنسية على مصر كانت أهم البواعث للفكر الإصلاحي عمومًا، وللفكر القومي على وجه الخصوص، بل ألزمناها بضميمة تاريخية أخرى أوردها بعض المحققين من النّظّار، وهي أن الفكرة الإصلاحية كانت موجودة بالفعل عند العرب والمسلمين قبيل الحملة الفرنسية على مصر، وسقنا لذلك ما أتيح لنا من شواهد عليه اقتبسناها من أصحابها وربما زدنا عليها نكتًا على سبيل المقارنة والاستنباط. ثم مضينا مع المسارات التاريخية للقومية العربية على شاكلة من تناولها بالنظر والنقد مستفيدين مما جروا عليه من تقسيم زمني لتطورها. ولم ننزع في عرض هذه المسارات إلى استفراغ القول في التأريخ لأنه ليس ذلك من غرضنا ولا هو في مكنتنا. وإنما رمينا إلى أن نومض بما يُعطي نظرة عامة على أهم ما مرت به الفكرة القومية من ظروف وملابسات، يسكننا في ذلك الوعي بأن النظر في الظاهرة القومية -كما أسلفنا- لا ينفك عن النظر في تاريخيتها؛ وأن كثيرا من تفاصيل أحداثها السياسية لا يسلم إلينا بدخيلة هذا الخطاب بل يدخلنا في غمار مطارحات مجالها مختلف عن مجال هذه الدراسة. بل إن

فهم مسائل هذا الخطاب هو المدخل إلى فهم تلكم الأحداث في تشابكها وتلاحقها.

ثم إننا عرضنا مقولاتها؛ وأجرينا القول في التأسيسية منها وانتخبنا بعض المقولات المركزية لإغناء القول على اعتبار أنه قد اشتقت من هذه المقولات المركزية مقولاتٌ اختلف القوميون فيها بين الاعتبار والطرح، والتقديم والتأخير. وقد رأينا أن مدار هذه المقولات على مطلبي السيادة والريادة. وفي هذا السياق، كان من أهم ما انتبهنا له وعملنا على التنبيه إليه -وعضدناه بأقوال النظار من القوميين وغير القوميين فيما يأتي بعد ذلك من مباحث- أنه عادة ما يُفَرَّقُ بين المشروع القومي العربي والمشروع الإسلامي وقد تمضي هذه التفرقة بعيدا إلى حد الحديث عن البدايات المختلفة المنفصلة المتباينة، بل وقد يفاضل فيما بينهما من حيث الأسبقية في الوجود. وقد أرِزْنا إلى الرأي الذي لا يَخْلَعُ عن الخطاب القومي العربي جُبَّته التجديدية، ولا يُجرِّد المشروع الإصلاحي الإسلامي من بوارِقِه القومية؛ فإنهما معا قد انطلقا فعلا قوميا عربيا يسعى إلى المطلبين التأسيسيين اللذين اعتبرناهما قطب الرحى في المشروع القومي العربي، وهما مطلب السيادة ومطلب الريادة. غير أنهما -المشروع القومي والمشروع الإسلامي- قد تفرقت بهما السبل في اللواحق من المستجدات حتى امتاز كل واحد منهما عن أخيه. ثم إنه لو جازت هذه التعددية في منطق مشاريع التغيير الاجتماعي، فإنه من غير الجائز أن تتحول إلى استقطاب ربما كان

مدمرا في كثير من الأحيان؛ وهو ما صار إليه الوضع بين هذا التيارين في البلاد العربية غير ما مرة. ولذلك تعمدنا أن نخص هذه المسألة -إذ تناولها النظار في القومية بالنقد واحتفوا بها كثيرا- بمساحات لا بأس بها في القسم الذي خصصناه للقراءات النقدية في الخطاب القومي العربي سواء منها تلك التي جاءت نابعة من داخل المدرسة القومية، أو تلك التي قام بها من خارج هذه المدرسة من نظر في الظاهرة القومية العربية متناولًا بالنقد خطابها وممارساتها.

فأما هذه الأخيرة -أي القراءات النقدية من خارج المدرسة القومية- فقد وزعناها على ثلاثة من النّظار يُمَثِّل كلٌّ واحِدٍ منهم طَرَفا كان له تفاعله الخاص مع ظاهرة القومية العربية. فكان الأول وهو "مارتن كرامر" ممثلا لوجهة النظر "الإسرائيلية"، وهي هامة بالنسبة لكل ناظر في القومية العربية باعتبار مركزية القضية الفلسطينية، والصراع العربي-الإسرائيلي. وكان الثاني وهو "د.محمد عمارة" ممثلًا لوجهة النظر الإسلامية وبالتحديد ما يصطلح عليه بتيار الوسطية الإسلامية، وتأتي أهميته من كونه كاتبا مخضرما بين الماركسية العربية والصحوة الإسلامية من جهة، ولكونه وسطا بين الكتاب الإسلاميين "الكلاسيكيين" ونظرائهم "الجدد" من جهة ثانية، ولكونه من أصحاب ما أسميناه "النزعة التقريبية" بين الإسلاميين والقوميين من جهة ثالثة. أما الثالث، فهو عالم المستقبليات المغربي البروفيسور د. المهدي المنجرة رَحِمَهُ اللَّهُ؛

وتأتي أهميته من وجوه عدة تعود بالأساس إلى كفاءته العلمية العالية، وتجربته المتينة في العمل بالمنتظم الدولي ومعايشته - عن قرب من مصادر القرار إقليميًا ودوليًا - لأهم المحطات في تاريخ العرب المعاصر. غير أن السبب الرئيس الذي دفعنا إلى أن نخصص له مبحثًا كاملًا للنظر في رؤيته النقدية للقومية العربية هو أنه كان قد أنجز رسالة دكتوراه حول جامعة "الدول العربية بين ١٩٤٥ و١٩٥٥" تقدَّمَ بها لجامعة لندن سنة ١٩٥٧م، والتي تحدث في القسم الأول منها عن المشروع القومي العربي وناقشه فكرة ومسارا.

وفي الخاتمة سَوَّرْنا هذه الدراسة بمقاربات تتكامل مع ما قدمنا لها به. فناقشنا مقولة "الفشل" التي ترد كثيرا عند النظار -القوميين وغيرهم- في القومية العربية، وحاولنا أن نضع اليد على وجوه التمام والنقص فيها. ثم انتقلنا إلى طرح سؤال التجديد والاستئناف في الخطاب القومي العربي، وقد وجدنا عند الفيلسوف المنطيق د. طه عبد الرحمن معالم هادية لما تصورناه من مخرج للقومية العربية إزاء مآزقها ومسددات تقيها ما يعرض لها من مزالقها. وقد "اجتهدنا" بعض اجتهاد في تشغيل ما أثله من مفاهيم للخروج بتصورات عن سبل الارتقاء بالقومية العربية من حالة التيقظ لها (اليَقَظَة القومية العربية) إلى حالة التيقظ بها (القومية العربية اليَقِظَة).

ولسنا نزعم بحال إحاطة هذه الخطاطة بالموضوع الذي

تصدينا له، بَلْهَ أن نزعم استيفاءها للموضوعات والمقولات التي يجب النظر فيها ولا ينبغي مجاوزتها أو إغفالها في سياق النظر في الخطاب القومي العربي عرضا أو نقدا؛ ولكننا مع ذلك نزعم أننا وإن لم نوف النظر حقه في كثير من التفاصيل الهامة والقضايا الوازنة في الفكر القومي العربي، فإننا قد أثرنا الانتباه إلى محطات فاصلة وموضوعات مركزية ومداخل نقدية نتمنى أن تعطي فكرة عن هذه الظاهرة وهذا الخطاب اللذين لم يختلف النظار في كونهما يتسمان بالتعقيد، ويستعصيان على الجمع، ويغالبان الضبط والتأطير. ولقد حاولنا أن نستشف منهجًا في النظر يسُدَّ بعضَ مَسَدٍّ في هذا الصدد متسم بالبساطة التي نرجو أن لا تكون مُسِفَّة، وببعض الاتساق الذي نأمل أن لا يكون متَكَلَّفا. إن هذه الدراسة محاولة لمسح طوبوغرافي سريع وأوّلي لمعالم الفكرة القومية العربية التي أخذت بتلابيب الوعي العربي منذ قرن بل يزيد. وهي "مقبلات" لفتح شهية القارئ الجديد الذي نشأ في زمن توارت فيه الشعارات القومية التي على ما يمكن أن يُعَدَّ من علاتها، أو يقال في زلاّتها، فإنها قد ملأت الوجدان العربي بالأمل لفترات ممتدة، واستطاعت أن تحقق ما لم يحقِّقْه غيرها من مناهج التغيير التي تعاورت الوعي العربي حشدا للطاقات وبناء للمؤسسات وبصما للتاريخ المعاصر. ولو لم يكن من هدف لدراسة هذا الخطاب إلا الاطلاع على هذا الذي ملأ دنيا العرب وشغلهم على امتداد قرن أو يزيد في سبيل فهم أفضل للحاضر وتشوف أقوم للمستقبل لكفى به

هدفًا ساميًا، ولو وفقت هذه الدراسة إلى فتح مجال ما في اتجاه هذا الأمر لكانت موفقة غاية التوفيق إن شاء الله.

وختامًا فإن هذه الدراسة التي ضاق مجالها الزمني المخصص لبحث موضوعها، وضاقت مساحة الكلم فيها أمام صاحبها، قد وقفتنا أمام زوايا معتمة من تاريخنا الحديث، وجوانب داجية من شخصيات من طبعوه وأثروا فيه، وأوجه مشتبهة لأفكار تبلدت بمداولتها القرائح والفهوم. وقد تبين لنا أنْ رُبَّ رفيعٍ من الأفكار والشخصيات حقُّه الوَضع، ورُبَّ وضيعٍ منهما حقُّه الرفع. وكم من فكرةٍ مدفوعة بالأبواب حقُّها الإكرام وإفرادُ أشرف مكان، وأخرى كثر بها الاحتفاء وجب طرحها من عند أقرب شباك! . . ولهذا فكل أملي أن يفتح الله لنا بابا ندلف منه إلى هذه العتمات بنور الفهم وفانوس العلم، وأن يتقبل هذا الجهد القليل فيكثره بالقبول؛ وأن يتجاوز عما قد يكون فيه من دلس في الدلالة أو إغراض في الإحالة لسنا عنهما بمنزهين، وإن كنا لهما -علم الله- غيرَ قاصدين؛ وربنا في ذلكم المقصود والمأمول. والحمد لله ربِّ العالمين.

**فيصل الأمين البقالي**

**الأربعاء ٠٨ ربيع الأول ١٤٣٦هـ/ ٣١ دجنبر ٢٠١٤م**

**طنجة - المغرب**